الشعر في عصر بني أمية

يبدأ هذا العصر بمقتل الخليفة الراشد الرابع والأخير علي بن أبي طالب، وتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة 42 هـ بعد صراعات دامية ومعارك طاحنة، وهو عصر يتميز باستقرار الدولة على أسس جديدة بعد الفتن السابقة، واستكمال الفتوحات حتى وصلت إلى حدود الهند شرقا وإلى شمال افريقيا والأندلس غربا، كما تميز بكثرة الثورات المعارضة للحكم، وبداية الاختلاط المكثف بين القبائل العربية وغيرها من الشعوب والثقافات الأخرى، ولا سيما الفارسية (العراق) والسريانية (سوريا) والقبطية (مصر)، فانتقل النظام السياسي من مبادئ الشورى والصلاح إلى ملك عضود يتوارثه الأبناء عن الآباء، ويكون للخليفة ولي عهد في حياته تؤخذ له البيعة مسبقا أيضا. واتخذ خلفاء بنو أمية القصور والحرّاس والحاشية والحجّاب مما لم يكن له وجود أيام الخلافة الراشدة، ووضعت دواوين (إدارات) للدولة، وتحوّل الجيش من مجموعة من المتطوعين المجاهدين الذين تدفعهم حميتهم الدينية للجهاد إلى جيش منظم من الجنود الدائمين المحترفين مقابل أجور يتقاضونها من الخليفة.

وانتقل مركز القيادة السياسية من الحجاز (مكة والمدينة) إلى الشام (دمشق)، وهاجرت أغلب القبائل العربية مواطنها القاحلة في الجزيرة لتتخذ موطئ قدم لها في أراض خصبة ترويها الأنهار الدائمة، دجلة والفرات والنيل، وأنشئت مدن جديدة كالكوفة والبصرة، والتي تحولت إلى مراكز إشعاع ثقافي وعلمي وديني، ولكنها كانت أيضا بؤرة للصراع السياسي والمذهبي والعسكري، وقد اتسم هذا العصر بالفتن السياسية والانقسامات المذهبية والثورات العنيفة التي كانت تشتعل في كل مكان وفي كل حين، ولم يهنأ بنو أمية بخلافتهم إلا نادرا لا سيما بعد موت خليفتهم المؤسس الأول معاوية، فكان خلفاؤهم منشغلين بحروب داخلية مستمرة، يعالجون الأوضاع بالقمع والبطش تارة، وبالرشوة واللين تارة أخرى. ومن أبرز هذه الثورات :

1 ـ ثورات الشيعة بقيادة الحسين بن علي وأحفاده من بعده.

2 ـ ثورة الزبيريين بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوّام وأخوه مصعب.

3 ـ ثورات الخوارج وأشهرها ثورة قطريّ بن الفجاءة. وثورة الأزارقة.

4 ـ ثورة المختار الثقفي.

5 ـ ثورة عبد الرحمان بن الأشعث.

وقد ساهمت هذه الثورات المتلاحقة في انتعاش غرض جديد هو الشعر السياسي، فكان لكل حزب أو ثورة شعراؤه الذين يدافعون عنه ويعرضون أفكاره وعقائده ودعوته، فتحوّل الشعر إلى أداة للدعاية السياسية الدينية. فنجد من شعراء البيت الأموي الفرزدق وجرير والأخطل، ومن شعراء الزبيرية عبد الله بن قيس الرقيات، ومن شعراء الخوارج عمران بن حطان، والطرّماح بن حكيم، ومن شعراء الشيعة الكميت الأسدي الذي يقول في مدح آل البيت:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشوق يلعب

ولم تـلهني دار ولا رسم منـزل ولم يتطــربني بنان مخضب

ولكن إلى أهل الفضائل والنـهى وخير بني حواء والخير يطلب

بنـي هاشم رهــط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

ومالي إلا آل أحــمد شـيعة ومالي إلا مذهب الحق مذهب

بأي كــتاب أم بأي ســـنة يــرى حبهم عارا علي ويكتب

كما شجع بنو أمية الانقسامات القبيلة تعزيزا لسلطتهم، جريا على مبدأ "فرق تسد" ، فظهر الصراع المسلح بين القبائل العربية التي انقسمت إلى عدنانية (قبائل الشمال) وقحطانية (قبائل اليمن)، ثم انقسم العدنانية إلى ربعية ومضرية، ثم انقسم المضرية إلى قيسية وتميمية، وكان بنو أميّة في أول أمرهم متعصبين لليمانية لأن أعدائهم من بني الزبير كان جل أنصارهم من القيسية.

وما يمكن ملاحظته أنّ الشعر قد بقي وفيا إلى حد كبير من الناحية الفنية للنموذج الجاهلي، فاستمر الشعراء يقفون على الأطلال، ويتبعون في بناء القصيدة الأسلوب القديم، وإذا مدحوا أو هجوا أو افتخروا فعلى التقاليد الشعرية نفسها تقريبا، أما من حيث الشكل فاستمرت الأوزان القديمة.

وقد عاد الشعر في هذا العصر إلى ما كان عليه من قوة وانتشار أيام الجاهلية، وذلك بعد انحسار موجة الإيمان الأولى، وموت الخلفاء الأوائل الذين لم يكونوا مغرمين بسماع المديح، ولا براغبين في إنفاق الأموال على الشعراء، ذلك أنّ خلفاء بني أمية استدعوا إلى بلاطهم كل شاعر، وأغدقوا الهدايا والأموال، واحتفوا بالقصائد

والغناء، فدفع ذلك الشعراء إلى اتخاذ المدح طريقا للتكسب، وأدى هذا إلى تنافس الشعراء فيما بينهم (الفرزدق، وجرير، والأخطل) ، فتطوّرت المعاني وقويّ الإبداع وطالت القصائد، ورقت لغتها، وعذب أسلوبها، ليتناسب مع ذوق الأمراء المترف وحياة القصور الناعمة، وساهم شيوع الغناء والموسيقى في جعل الشعر أكثر نقاء وعذوبة، وتم التخلي شيئا فشيئا عن عالم البادية ولغتها وأساليبها الخشنة وألفاظها القاسية. من ذلك قول جرير في الغزل:

إنّ العيون الـتي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحـيين قتلانا
يصرعن ذا اللّب حتى لا حراك له وهن أضعف خلق الله إنسانا

أما الهجاء فقد تطوّر هو أيضا، وذلك من تشجيع بني أمية أيضا، فقد كان شعراؤهم يقذفون أعداء الأسرة الحاكمة بشتى النعوت والأوصاف، فظهرت فن المساجلات والنقائض الشعرية، واشتغل بها الناس وصارت مثار حديثهم وتسليتهم.

يقول جرير في الهجاء:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وفي الفخر نجد الشعراء يتفاخرون بعصبياتهم القبيلة، وبأنسابهم وحروبهم في الجاهلية، مما أحيا الكثير من الضغائن والأحقاد التي أطفأها الإسلام وحكم الراشدين المعتدل. يقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلّهم غضابا

ويقول الفرزدق :

لنا العز الغلباء والعدد الــذي علـيه إذا عد الحصى يتحلف
ولا عــز إلا عــزنا قاهر له ويسألـنا النصف الذليل فينصف
ترى الناس إذا ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

أما الغزل فقد ازدهر سوقه بالحجاز، حيث انقسم إلى قسمين واضحين: غزل ماجن صريح، وقد شاع في المدينة ومكة، وكان طلابه ومريدوه من المنعمين المترفين من أبناء المهاجرين والأنصار الذين أغدقت عليهم الفتوحات والسلطة الكثير من الثروة والمال، فاتخذوا من حياة الترف تعويضا عن تولي المناصب السياسية والعسكرية التي حرمهم منها بنو أمية، ومن أبرز شعراء هذه الطائفة عمر بن أبي ربيعة، والأحوص.

والقسم الثاني هو الغزل العذري، وهو شعر عاطفي، نبيل المقصد، لغته رقيقة عذبة، مطبوع بالحزن وألم الفراق، وقد شاع بين القبائل الفقيرة المستضعفة كبني عذرة وخزاعة، جنوب مكة، وهو يمثل اتجاها روحيا جديدا غير مسبوق في الجاهلية، ومن أبرز ممثليه جميل بثينة (بن معمر)، وكثيّر عزّة، وقيس بن الملوح (مجنون بني عامر)، يقول جميل:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله مثلي

أبيت مع الهلاك ضيفا لأهلها وأهلي قريب موسعون ذوو فضل

ويقول قيس بن الملوح في ليلى العامرية :

وإني لمجنون بليلى موكل ولست عزوفا عن هواها ولا جلدا

إذا ذكرت ليلى بكيت صبابة لتذكارها حتى يبل البكا الخدا

ويقول أيضا :

أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرا لا أعد الليالیا

أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

وما بي إشراك ولكن حبها كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها وأشبه أو كان منه مدانيا

ويكمن القول إنّ الشعر قد استعاد في هذا العصر الأموي سطوته وقوته، كما كانت في الجاهلية أو أشد، مع تطور واضح في بعض الأغراض والمعاني، وإن بقي في بنيته العامة استمرارا للقصيدة العربية القديمة .